«المناضل» والاصطدام بجدران الخطأ

بقلم عبد الرحمن مجيد الربيعي

في كتابه القيم (بحوث في الرواية الجديدة) يؤكد ميشال بوتور على اهمية الفن الروائي في عصرنا . فهو يرى أن (في وقتنا الحاضر لا وجود لشكل ادبي يتمتع بالقوة التي تتمتع بها الرواية) كما انه يؤكد (ان الرواية هي تعبير عن مجتمع يتغير ولا تلبث ان تصبح تعبيرا عن مجتمع يعي انه يتغير) . تذكرت هذين الرأيين وانا أراقب بداية المد الروائي عندنا والذي ظهرت تباشيره في عدد من الروايات التي صدرت خلال الاعوام الثلاثة الاخيرة .

يشكل النضال قمة من قمم الفعل الانساني الايجابي الذي يحرص على تبني الثورة والاجهاز على كل مظاهر السلب والانتكاس حتى تنعم شعوب الارض بالسلام والعيش السعيد ، ومن هنا تأتي الرواية لتكون الصوت الاهم والوليد الشرعي للتغيير الذي احدثته الثورة ، لانها الشكل الادبي الاقوى والتعبير الانسب عن واقع يتغير بسرعة كما يرى ميشال بوتور في رأيه السالفين .

ان الرواية سجل لنضالات الشعوب وصراعاتها وهي كذلك تاريخ للثورات والتحولات وهي المبشرة أيضا بانجازات لاحقة اخرى . ومراجعة سريعة لانجازات ادباء العالم في مجال الرواية تؤكد اننا نستطيع الالمام بالفترات التاريخية وننفذ الى وجدانها من خلال الروايات واذكر على سبيل المثال روايات شولوخوف . واندريه مالرو وسارتر ونجيب محفوظ وغيرهم كل في فترته وفي موطنه .

ان المجتمع العربي سائر نحو التغيير وديالكتيك الاشياء يشمله وينقله الى مواقع متقدمة اخرى ، وان نظرة عاجلة لفترة الاربعينات ومن ثم الخمسينات تشير الى هذا التغيير وهذا التطور. ولذلك تبقى الرواية النموذج الفني المنشود لهذا الواقع الذي تجيش به رياح التغيير والثورة وتسقط عنه براقع الجمود والتحجر .

وفي العراق ظلت الرواية غائبة وتكاد ان تكون معدومة وما نشر منها في الفترات الماضية قليل وسريع لم تكتمل اداته الفنية ولذلك لم يبق ماثلا في تاريخنا الادبي . وبقينا نرقب بتلهف وشوق بزوغ الرواية العراقية المتخطية والمكتملة الاداة فنيا وفكريا . وقد ظهرت خلال الاعوام الثلاثة الاخيرة بضعة اعمال تشير الى ان فجر الرواية العراقية قد بدا يبزغ . وقد ولدت هذه الرواية تحمل هوية خاصة هي في كونها رواية سياسية كتبها روائيون كانوا طرفا في الاحداث السياسية التي مرت بالوطن في اعقاب ثورة تموز عام ١٩٥٨ . وعندما ازيحت الظروف غير الطبيعية وبدات الحياة تأخذ مجراها الصحي وانتهاء الاقتتال مع الاكراد في الشمال عاد الروائيون الى صفحات حياتهم الماضية ليكتبوا عنها .

ذنون ايوب كتب روايته (وعلى الدنيا السلام) بعض شخصياتها اوروبية والاخرى عراقية ، ويظل بطلها (الاستاذ) مدافعا عن موقفه السياسي وعن زعيم الدولة آنذاك وانتهت حياته دون ان يتخلى عن موقفه . كان متطرفا دون ان يراجع موقفه وذلك لان هذا الزعيم قد منحه منصبا عاليا واعاده الى الوطن بعد غيبة ، لقد كان (الاستاذ) نرسيسيا وتسيره احلامه ومصالحه الخاصة ولذلك انتهت حياته . ويعلق احد اصدقائه الاوروبيين قائلا : (لقد نصحته بعدم الذهاب . لقد كان عليه وهو المفكر الاديب ان لا يزج نفسه في معمعان السياسة) هكذا القضية اذن من جانب زملائه الاوروبيين . ولكن هل هي هكذا حقا من وجهة نظره هو بعد ان اغراه المنصب الاداري المنسب اليه وارتمى في ارض لم يبرأ سكانها من السياسة يوما وقد اصبحت خبزهم اليومي ؟

ورواية (ضجة في الزقاق) لغانم الدباغ تأخذ فترة سياسية اخرى في العهد المباد وتحكي عن نضال مدينة من مدن العراق ومقاومتها للنظام . على الرغم من انه لم يفد من اهم شخصيات الرواية السياسية (سعدالله) المحامي وركز على شخصية خليل المراوحة التي تمثل البرجوازية الصغيرة بكل حيرتها وقلقها ولم يتوان عن قبول وساطة عمه العسكري المتقاعد والمحسوب على السلطة من اجل اطلاق سراحه بعد ان اعتقل في احدى المظاهرات التي وجد نفسه فيها دون ان يختار هذا العمل .

وبطل رواية (الحبل) لاسماعيل فهد اسماعيل يدخل السجن لان الشرطة السرية تعثر على قصيدة ممنوعة في جيبه ، ولم يغير السجن من وضعه المهزوز بل دفعه الى ردود فعل شخصية ضيقة، فبعد هروبه الى الكويت يعود مخفورا الى العراق وليس معه غير عشرين دينارا وزجاجة عطر لزوجته وخمس علب سكاير ولكن ضابط الشرطة صادرها منه . فيبدأ بعد ذلك بسرقة بيوت ضباط الشرطة فقط . ولكن هل تحل القضية بالسرقة ؟ ان المسألة اكبر من هذا وهي التي ادركها برهان الخطيب في روايته (شقة في شارع ابي نواس) فبعد الاعتداء على الفتاة الكردية الهاربة من حرب الشمال

(*) المناضل ـ رواية لعزيز السيد جاسم ـ منشورات دار الطليعة ـ بيروت ١٩٧٢ .

وحملها سفاحا نرى (سامي) احد ابطالها يضع التبعة على الفترة السياسية والظروف النفسية التي خلقتها ولذا يقول لزميله حميد: (رغم هذا فلم اكن وحدي مسؤولا عما حدث وليس عدّاي أيضا . انها جملة ظروف معقدة كثيرة كانت تقف خلفنا وتساهم في خلق هذه المصيبة) ص ١٦٤ ، كما ان الرواية تحاول ان تضمد جراح الذين تساقطوا وانهاروا كحميد حويزاوي الذي اخضع لتعذيب قاس شلت بعده يده وشحنته كلمات سامي الذي لم يكن طرفا في النزاع بالقدرة على ترميم نفسه والاستمرار على الوقوف (واستشعر حميد وهو يستروح النسيم البارد قوة جديدة تملأ صدره ورغبة لان يفهم الجميع انه ما زال نقيا قادرا على العمل رغم اعترافه ورغم نبذه ورغم احتقار الاغبياء والحمقى فالانسان ليس حشرة حتى يسحق بسهولة كهذا) ص ١٦٥ .

انها روايات سياسية وتناقش مواضيع خطيرة بجرأة متناهية ،ولكن قسما من هذه الروايات تملك اهمية خاصة (١) لانها تحمل ارهاصا عن التغيير الذي طرأ في مواقف كتابها وانتماءاتهم السياسية ، وجاءت بمثابة نقد ذاتي للفترات التي عاشوها من قبل ومن ثم عبروها الى مواقع اخرى نقلت نضالهم الى سوح ووسائل جديدة بعد ان ملوا الوقوف المدين امام محطاتهم السابقة . ومن هذه الروايات (المناضل) لعزيز السيد جاسم والتي ستكون موضوع دراستي هذه .

ان الروايات الاخرى التي تحدثت عنها لم يعان شموخها من مسالة الفشل الانتمائي والبحث عن مواقع نضالية جديدة ولذلك جاءت هادئة وشعرية غالبا .. الحبل ، وعلى الدنيا السلام ، ضجة في الزقاق . شقة في شارع ابي نواس .. مثلا . أما (المناضل) لعزيز السيد جاسم فانها ذات موضوع اخر . تتحدث (المناضل) عن مجموعة من الشبان المنتمين الى تنظيم سياسي معين وتدور احداثها في الفترة الملكية المنقرضة . ويمارس هؤلاء الشبان المنتمون اساليب النضال السياسية الاعتيادية .. التظاهر .. توزيع النشرات السرية. الاضراب .. والاجوبة المعروفة على هذه الاعمال .. الاعتقال .. النفي .. الفصل من الوظيفة .

(بابل) بطل الرواية نموذج خاص من المناضلين ، يكره ان يقول: نعم كثيرا لانه يتساءل قبلها : لماذا اقول ؟ قبل ان يهز رأسه بالايجاب، انه يقرأ ويفكر ويقف ضد كل خطأ بقوة حتى يتخطى ويخرج عن اطار الماحكات اليومية والامراض التي يعيشها التنظيم بسبب من بعض النماذج الوصولية فيه غير فاقد لايمانه بالثورة والغد ، انه (اكبر من سواه الذين لا يعرفون الثورة . ولا يدفعه احساسه الى الغرور بل الى الحب) ص ١٨٥ ، ونموذج كبابل يصطدم منذ اول لحظة بجدران الخطأ ، فحميد رفيقه في التنظيم يعبر عن هزاله بتهربه منذ اول مهمة سياسية له كلف بها مع بابل للصق بعض النشرات على الجدران وكتابة الشعارات السياسية المطالبة بأسقاط النظام القائم آنذاك . ويستمر احمد هذا في ممارسة دور وصولي ليسقط من خلاله كل العناصر التي يرى فيها اندفاعا ثوريا اصيلا ، فيتمكن من ابعاد حسين عن التنظيم ويكون السبب في اعتقال العشرات من رفاقه ، ويتسلق المناصب الحزبية مسرعا حتى يتوصل الى قيادة التنظيم في المدينة . ومن ثم يتضح في الاخير ان احمد هذا كان لوطيا مستلبا وكانت تربطه علاقة جنسية شاذة مع معاون الامن وقد افشى له بكل اسرار التنظيم ، وفي الوقت الذي كان فيه رفاقه معتقلين كان مطلق السراح يصول ويجول في المدينة على هواه . وقد يبدو وجود نموذج كأحمد في التنظيم حالة غريبة لا يمكن ان تطهر بسهولة وانها قد تصل حدا مستعصيا يعجز عنه حتى التنظيم .

ويستمر اصطدام بابل بجدران الخطأ في المظاهرة التي كان من المقرر انطلاقها من المدرسة الثانوية ، وفشل هذه المظاهرة وتحويلها الى اعتصام هزيل يهرب قادته الواحد بعد الاخر عندما احتدمت الامور تاركين جماهير الطلبة سائبة بلا قيادة . ولولا حنكة بابل والتجاؤه الى العناصر النسائية التي احاطت المدرسة بقيادة حبيبته دلال لراح العشرات من الابرياء بسبب خطأ القادة المذعورين .

والامثلة تتكرر .. حسين الذي كان قريبا من قلب بابل يطرد من التنظيم ليطارد غلاما كان يحبه ويبقى مدافعا عن موقفه السياسي، ولكن الفعل الوحيد الذي يؤديه هو شتمه للملك والوصي في لحظات الثمالة . غلامه تخلى عنه وكذلك تنظيمه ، وبعد نفي بابل الى العمارة يبعث له برسالة يحملها له شرف الذي سافر الى العمارة متنكرا بزي قارىء كف لاداء مهمة حزبية ، في هذه الرسالة يكشف حسين كل اوراقه لاعز اصحابه ومن خلالها نلم بابعاد حياته الحائرة ونعرف انه خارجي لا يستطيع التنظيم ان يستوعبه وهو واحد من الناس الذين لا يخرجون بشيء حتى من وراء الاعمال الكبيرة التي ينجرفون فيها. وفي وقت الادانة والتلوث يجدون انفسهم متوحدين معزولين واصابع الاتهام تشير اليهم . ولكنني لا أجد مبررا في طرح هذا النموذج من المناضلين ، انه نموذج مهزوز ومريض لم يستطع ان يقف بنقاء منذ لحظاته الاولى وكانت (أناه) قوية منذ الاعتقال فقد بدل كل حياته لان الفلام الذي احبه قد تلوث واصبح مشاعا ، وليس كافيا ان نستحضر نموذجا كنا نجد نحوه تعاطفا فنحاول تأليهه عندما نتناول شخصيته في عمل ادبي خصوصا لنموذج مسفل مثل حسين الذي يستمر في انحداره هذا الى نهاية الرواية ، وفي الوقت الذي كان فيه المواطنون يهتفون للثورة في شوارع المدينة وسقوط النظام الملكي العميل كان حسين في غرفة بفي في احدى دور الدعارة السرية ولا يدري بما يدور حوله .

ويأتي زواج حبيبة بابل دلال غير المتوقع وهي رفيقته التي اندفعت كثيرا في حبه ليكمل فداحة الخطأ الذي سوره . وهو لا يعرف جوابا لزواجها من غيره كما اننا لم نلم جيدا بابعاد هذه العلاقة ودوافعها ولم يستطع المؤلف ان يقنعنا بها حيث بدأها بمفاجأة ساخنة لا يمكن ان تبادر بها شابة من مدينة غارقة في تأخرها وعشائريتها . ويكتفي بابل بالتعليق على زواج دلال قائلا : (ان المناضل لم يخلق للزواج في مرحلة نضاله السري وكذلك المناضلة).

ان بابل يرى نفسه مناضلا فقط ومن هنا يأتي مبرره الوحيد.وهو لا يبحث عن جزاء من وراء عمله هذا بقدر بحثه عن ان يتوج النضال بالنصر وان تعم الثورة الارجاء . ولذلك يواجه بحرارة وجرأة كل مظاهر الخطأ التي يراها فهو يقول لرفيقه غفور : ((لا شيء قمنا به حتى الان ، نحن خارج تاريخ الثورة ، واذا حصل ان تقوم ثورة فبلا شك ستكون من صنع سوانا ، وان تنظيمنا بدأ يتجرد تدريجيا من اصوله ونحس بالفراغ يتآكلنا .

ـ ولكنك تتجاهل ايها الرفيق معرفة سياستنا ؟

ـ انني اعرفها جيدا وهذه هي المصيبة ، سياسة لا تحدد شيئا في حين تتحدث عن كل شيء .. هذا تشويش) ص ١٢٧ .

ان هذا الحديث هو الذروة في مأساة بابل وبداية تغيير مواقعه الاولى وهو الشرارة التي تشير . الى انه قد اصبح وحده وان التنظيم لم يعد ميدان نضاله . ويدفعه الوضع هذا الى التساؤل: (هل ان المناضل انسان منا ام انه انسان علوي) ص ٧١ . ولكن نماذج كبابل هي اكثر النماذج النضالية عذابا لانها تسلك اصعب الطرق واكثرها عسفا وشظفا . ومع كل هذا يظل معانقا لقضايا الناس

---

(١) استثنيت في هذه المقالة روايتي (الوشم) ولم اشر اليها علما بانها تنضوي مع مجموعة الروايات السياسية التي تحدثت عنها .

اليومية بكل حرارتها وعفويتها ، تمر به الاحداث والوجوه ويبقى الشاهد الذي يرى ويسمع بذكاء . انه ينشد الاحتواء وجمع كل الثوريين في منطلق واحد لذلك يدين رفيقه زاهد المتطرف في فهمه للاممية وعدائه للقومية بعد ان سمع حواره في السجن مع سليم المناضل البعثي ويعلق على حوارهما قائلا : (انكما تسيران في طريقين متخاصمين بدون ضرورة ، طريقكما واحد فيما يجب هو طريق تحرير الوطن من الاستعمار وعملائه) ص ١٩٨ .ولو كانت كل عقليات رفاق بابل مثل عقليته لما حدثت كل المتاعب اللاحقة ، انه مبشر ومشخص بما سيحدث ولكن صوته ضاع آنذاك في فورةالهتافات والمزايدات السياسية . كان الصدق والحقيقة شعاره في اي عمل يؤديه وفي اي مكان يحل فيه ولذلك يصر امام رفيقه زاهد بان نظرته للامور خاصة به فيرد عليه زاهد :

ـ ولكن بذلك تجعل نفسك ان عاجلا او آجلا خارج نطاق الحزب؟

ـ هذا لا يهمني بدرجة اولى انما تهديني قناعاتي ، وذلك اثمن شيء بالنسبة لي) ص ٢٠٤ .

وقد صور المؤلف محنة بابل تصويرا دقيقا وعبر فيه عن نموذج المناضل كما يراه وهو الكاتب الذي ميزته دراساته السياسية والفكرية الواعية ، ولكن طرح النموذج الفكري في عمل روائي ليس سهلا بالمرة لان الرواية فن اخر ولغة اخرى وتختلف كليا عن المقالة ومن هنا تبدو حاجة (المناضل) الى شيء من الشعر ليخفف من حدتها وجديتها ولغتها العلمية . ومن هنا تاتي الصعوبة التي انتصر عليها المؤلف غالبا ولكن ما زال امامه العمل من اجل تطويعها كليا وانقاذها من طابع البحث والجدال . ومن الملاحظات التي تسجل على الرواية الاكثار من الحديث عن خصوصيات بابل وتحويلها الى اعتراف مطول يرتبك احيانا لكثرة تشعباته ومسائلهويبدو ان المؤلف لم يكتب عن هذه الشخصية في وضع نفسي واحد ولذلك تاتي هذه الارتباكات ،فمرة نراه جادا وحازما واخرى مهزوزا مرتجا، وعندما يتساءل عن وضعه يقول : (لماذا لا يعرف بابل مشكلته ؟ هو يخشى تحول الحلم الى واقع . انه شغوف باحلامه . ممنوح لها، ومن خلالها يحلق به الوجد ولكنه يعرف ايضا ان الاحلام عندما تظل احلاما فانها تطير براسه وتذهب به بعيدا عن نفسه ، ولم يكن امام حقيقته الشخصية سوى طريق واحد هو ان لا يصبح الحلم بكليته واقعا كما لا يظل الحلم حلما) ص ١٨٥ . في رأيي ان الرواية تحتاج لكثير من الاختزال على الرغم من انني اؤيد رأي الناقد الكبير (البريس) الذي يقول فيه : (ان الحياة لا يمكن روايتها ، الحياة المتشعبة الضخمة) مثل الحياة التي عاشها بابل بكل ثقلها وزخمها وتناقضاتها ، وقد طغى على الرواية طابع الاعتراف ولذلك امتلات بعشرات الاسماء والاشخاص وكان بالامكان تكثيفها والتاكيد على النماذج الرئيسية التي هي الاقطاب المحركة لمسار الرواية امثال : بابل ، حسين ، شرف ، احمد ، دلال ، وغفور، ومن خلال هؤلاء يمكننا ان نلج ابواب ذلك العالم الكبير ، عالم التنظيمات السرية وما فيه من اسرار وخفايا وبذلك يؤدي الروائي مهمة كبيرة وهي اجمل مهمة على حد تعريف (رينيه بويلو سيف) حيث يقول : (ان اجمل مهمة محدودة تقدم للروائي هي ان يصور اناس زمنه) .

لقد توقفت طويلا عند موضوع هذه الرواية ولم اتطرق الى مسالة تكنيكها فمن الملاحظ ان المؤلف كان محاصرا بالوقائع ولم يجد ثوبا فضفاضا غير الطرح التقليدي لها واذا اردنا البحث عن انجاز في الشكل الروائي من خلالها لما وجدنا. ويدفعنا هذا الى التساؤل : هل ان الاحداث السياسية الكبيرة التي نريد ايصالها لاكبر عدد ممكن من القراء في عمل روائي ، هل ان هذا الايصال يبيح لنا التوقف في اطار الانجازات الشكلية الماضية فقط ؟ انني لا اؤيد هذه الوجهة التي تبناها عدد كبير من الزملاء حتى في الروايات التي تحدثت عنها في مطلع هذا المقال ، ما عدا رواية (الحبل) لاسماعيل فهد اسماعيل . انني اسجل ماخذا كبيرا على تلك الروايات التي تنطلق من ذلك الرأي التقليدي القديم : (ليس في الامكان ابدع مما كان) لان (الرواية اعظم من الموضوع) كما يقول فرانك اوكونور ، وانا مؤمن بهذا القول ويلح عليّ بقوة عند قراءتي لاية رواية .

ان اهمية (المناضل) في انها ذات موضوع خطير وتعري بجراة متناهية فترة سياسية بكاملها . لولا هذه الرواية لظلت في الظل ابدا . وانها تسقط البراقع عن عشرات الوجوه التي كانت وراء الاختلاطات والانتكاسات التي آلت اليها تنظيماتها فكانت ذات مردود سلبي على الحركة الوطنية باكملها في قطرنا . كما انها تدعو لا الى تطهير الذات فقط بل لتطهير التنظيمات ايضا . والا كيف يصبح شخص منحرف جنسيا مثل احمد مسؤولا عن قيادة تنظيم سياسي كبير في المدينة ؟ والصراحة التي قدم بها الشخوص واسقاط هالات التاليه عنهم قادته الى موقع محرج فاما ان يقول كل شيء او يصمت ، ولكن الشيء الرائع في هذه الصراحة انها ليست صراحة التشفي وانما صراحة المرض والتبشير بنماذج اخرى لن تخسر افضل مناضليها بسهولة ويبقى في صفوفها الوصوليون والانتهازيون .

ان الرواية تدفعنا الى انتظار جواب اشمل اعطانا المؤلف جزءا منه في القسم الاول من روايته وما زلنا في انتظار بقية الجواب في قسميها اللاحقين .

بغداد **عبدالرحمن مجيد الربيعي**

« دار الآداب تقدم »

مؤلفات كولن ولسون

الشك	ترجمة يوسف شروروعمر يمق	٥٠٠
ضياع في سوهو	ترجمة يوسف شروروعمر يمق	٤٠٠
طقوس في الظلام	ترجمة فاروق محمد يوسف	٧٥٠
القفص الزجاجي	ترجمة سامي خشبة	٦٠٠
اللامنتمي	ترجمة أنيس زكي حسن	٥٠٠
مابعد اللامنتمي	ترجمة يوسف شروروسمير كتاب	٤٥٠
سقوط الحضارة	ترجمة انيس زكي حسن	٦٥٠
رحلة نحو البداية	ترجمة سامي خشبة	٩٠٠
المعقول واللامعقول في الادب الحديث	ترجمة أنيس زكي حسن	٥٥٠
اصول الدافع الجنسي	ترجمة شروروسمير كتاب	٦٥٠